السماء الاولى

خطاب للانسة جوليا طعمه القته في حفلة الجمعية الخيرية
الارثوذكسية في طرابلس في ٣ حزيران سنة ١٩١٠

سادتي

موضوع كلامي في هذا المساء « السماء الاولى » وكاني ببعضكم حالما يسمعون بموضوعي يقتسا لون ماذا تعني هذه المتكلمة بالسماء الاولى — اليوجد سماء اولى وسماء ثانية وسماء ثالثة وهلم جرا الى السماء السابعة التي ذكر عنها الرسول بولس عليه السلام · نعم ايها المقسائل الكريم يوجد في اعتقادي سماء اولى وسماء ثانية · ولعل السماء الاولى هـذه هي من ضمن السماوات السبع التي ذكرها الرسول · وليست السماء الاولى التي اعنيهـا — الجلد البديع الذي رصعته يد الخالق العظيم بالكواكب والسيـارات — ولا هي قصور الملوك ومواضع انسهم ومجالي عظمتهم · ولا هي صرحاً كاليـاً بنته مخيلتي في عالم الاحلام والرويا فاحببت وصفه وتشويقكم اليه · لا ليست السماء الاولى شيئاً من كل هذا وانما هي يا سيداتي « البيت » الكوخ الحقير اذا شئت — الغرفة الواحدة والمطبخ بجانبها · مسكن العائلة التي انت في وسطها · البيت الذي سلمت اليك ادارته والمملكة الصغيرة التي جعلك الله ملكة عليها ··

في الارض ايها المحفل الكريم جاذبية تجذب اجزاء المادة بعضها الى بعض وتضم ما تباعد منها الى جزء واحد · فهي تحكم كل ما على هذه الغبراء من مادة وحيوان ونبات وانسان · نعم هذا الوجود وتنفصل منه الى سيارات السماء · فهي تربط افرادها بعضها ببعض وتجعلها تسير على وتيرة واحدة لا

يعتريها اختلال ولا اضطراب ——

فان كان في هذا الكون مادة فالانسان من ضمن تلك المادة وان كان في الكون جاذبية ففي الانسان جاذبيات وان كان في الكون قوة غريبة ففي الانسان قوات —

يعيش هذا الانسان ويطلب سعادته في الفلوات احياناً وفي المجتمعات بعض الاحيان ينشد ضالته في جمال الطبيعة وتقاوة جلد السماء ويسمع تغريدها في افواه الطيور ولكنه لا يجدها فهي بعيدة عنه ما دام ينشدها خارج جدران البيت ..

اول نغمة ضربتها الطبيعة على قيثارة الزمان كانت من صوت تلك الآلة التي بها كسر الانسان الاحجار لبناء بيته . اول صوت من اصوات السعادة رفعته الطبيعة كان من صوت فاس الانسان يقطع به الاشجار لبناء بيته اول تنهات هذا الوجود التي وقعت على ربابة السعادة كانت من ضمن جدران البيت الذي كان ولم يزل مصدر السعادة والسرور —

هل علمت يا من ركب الباخرة وهاجر الى بلاد بعيدة انك تذرف الدمع لا لفراق بلادك وجمال طبيعتها بل لفراق اهلك — هل علمت وانت في بلاد الغربة واقف حيران لا تعلم ما فقدت انك فقدت هذه العلائق البيتية وسعادة الحياة العائلية . تمر في باريز ولندن وترى من عجائب هذا الوجود وعظمة الانسان ما يحير العقول ويسبي الالباب فتقول ان بلادي مع سقوطها اجمل من هذا كله وبالحق ان بيتك هو ما تعنيه ببلادك وهو اجمل من هذا كله

اننا نحن النساء نحلم ونتكلم ونهجس ونفتكر كثيراً بالسماء فنذهب الى المعبد ونركع الساعات نخضع الارادة ونحارب الشهوات نبر بوالدينا ونزكي اموالنا (وان قلت) كل ذلك طمعاً بالوصول الى السماء اخيراً — فما اجمل

هذه الاحلام وهي مبنية على الكتاب والوحي وما اجمل تلك البقعة السماوية وما اجمل ما وصفها به صاحب الرؤيا بقوله « ما لم ترَ عين ولم تسمع به اذن » وقد ظهرَ لي كما تكمل قاري هذا السفر ان الخالق سبحانه وتعالى قد اعتنى كثيراً بتزيين وتنميق ذلك المحل فرصع ارضه بالجواهر الثمينة وزين جدرانه بالاضواء الباهرة لانه عرف ما طبع عليه الانسان من الميل والولوع بكل ما هو جميل وقد اراد بها تتميم وسائل السعادة وقد لا تخلو منه سعادة حقيقية .

فان كانت هذه السماء مطمح آمالك يا سيدتي فلماذا اذاً اراك احياناً وعلامات اليأس والضجر بادية على جبينك ؟ أفليس الحلم والامل بالوصول اليها اخيراً كافيين الى ان يجعلاك سعيدة غير مكترثة بما يعترضك من بوائق الدهر وضيق العيش ؟ وكأني اسمع صدى صوتك يقول نعم ان السماء موطن آمالي والمقر الذي تحن اليه كل شواعري ولكن لست ادري لماذا اوجدني الخالق في هذا الكون ألكي اعمل واتعب فقط ؟ هل يسر الله بتعذيبي وشقائي ! كلا كلا يا سيدتي فانك خلقت لغاية مجيدة وسامية خلقت ليس لكي تحلمي بالوطن المستقبل بل لتحسني الاول كي ترقي الثاني — ليس لكي تتعلمي فقط ان ما بعد هذه الحياة يوجد سماء جميلة بل لتكوني هنا سماء اولى لترقي الثانية .

فالاولى بك ايتها المرأة ان تطمحي وتسعي للحصول على هذه السماء الاولى التي يمكنك تكوينها داخل جدران بيتك — فاسعي واعملي واخدمي ليس بغية بالحصول على سماء الابدية بل لتكوين هذه السماء التي هي ملكوتك الخاص وعليك استلامها وادارة شؤونها .

لاترتضي يا سيدتي بان يدعى بيتك فيما بعد بيتاً بل سماء — قد اعتاد القوم ونحن ايضاً ان نفهم بلفظ البيت ما يبنيه البناء من حجارة وطين ويزيد

اليه النجار من ابواب واخشاب اما البيت الذي هو موضوع كلامي في هذا السماء فهو مقر هناء الرجل والمرأة ومستوطن سعادة البنين والبنات — موضوعي ما يسمونه بالانكليزية *Home* مستظل المراة ومملكة الام ومراح الرجل ومتنزه الاب ومرتع هناء البنين ومسرح مسراتهم .

نعيش في زمن لم يقم فيه كاتب الا وطرق موضوع المرأة من كل جهة واظهر اهميتها في الوجود فأخذ الشرقي في تعليمها وبذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل تهذيبها فاقبلت هي على الدرس وانصبت على اكتساب العلوم والفنون الجميلة فنبغ بعضهن وفزن واصبحن اليوم لا يتميز بينهن وبين الاوروبيات في المظهر والزي وذلك في الاجتماعات والاحتفالات وفي الشوارع والطرق وكل المحلات الخارجة عن البيت . ولكن كيف انت داخل بيتك ايتها المتهذبة المتعلمة ! لا تنسي ان مع ترقيك قد ترقى الرجل من قبلك ومع تمدنك قد تمدنت البلاد ايضاً . وصارت القهوات والملاعب والشوارع اية في النظام والترتيب وتفنن مديروها في طرق تحبيبها للرجل تفنناً غريباً . فلا بد من سباق وحرب بينك وبين اولئك كي تحببي الى رجلك واولادك صرف اوقات الفراغ والراحة في البيت مبرهنة لهم انه هو مصدر السعادة ومقر الراحة

وكيف يمكنك ان تجعلي بيتك جذاباً .

هذا هو سؤال صغير ولكن جوابه اذا اردت ان افيه حقه املاً منه كتاباً وما لا يدرك كله يكتفى بذكر بعضه .

يمكنك ان تجعلي بيتك جذاباً باربعة امور

اولاً (بهيئتك وترتيبك) قد يظن البعض انه ما دام في البيت ما يكفي سكانه من طعام وشراب قد تمت الغاية المقصودة ولهذا اراك ياسيدتي تهتمين كثيراً في ادارة المطبخ فتفتخرين برقة كبابك وطيب طعمها على كبة جارتك

ولك طريقة في عمل المحاشي واليخاني لم يتوصل اليها واحدة من جاراتك . فتقدمين هذه الاطعمة لزوجك مفتخرة ولا يهتي من وضع اولمة فيفيه حتى تطالبه بالمديح والاستحسان وان لم يفعل تعرضين امامه يديك المتعبتين وقذارة ثوبك وعدم انتظام شعرك قائلة « انظر لم ازل كما انا منذ الصباح حتى عملت لك هذه الاكلة التي تحبها ويا ليتني اسمع منك كلمة استحسان فيا سيدتي ان لزوجك عينين يرى بهما كما ان له فماً يستطعم به . ولست اشك بان منظرك في حالة غير مرتبة قد ساء نظره ولو لم يذكر لك ذلك . ولربما تعود رويتك على تلك الهيئة وقد اصبح لا يعلم مصدر السبب لانقباض نفسه مع ان طعامك لذيذ . ولكن « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

ان من واجباتك ايتها المرأة ان تعتني بشخصك وتظهر كل يوم من ايام حياتك وكل ساعة منها . ليس فقط وقت الذهاب الى المعبد والاعراس — ليس اكراماً للضيف والرجل الغريب بل اكراماً لزوجك وحباً باولادك وتعويداً لهم على محبة الترتيب والجمال — تذعرين عند دخول زائر اليك بغتة فتركضين الى غرفتك وتخرجين منها شخصاً آخر . أفليس الاولى بك ان تذعري من مقابلة زوجك او اولادك لظهورك امامهم بدون ترتيب . ذاك الزائر سيذهب ولربما لا يعود ولا يهمه من امرك شيء مع ان زوجك يراك في كل حين . وهو يتأثر لكل حالة من حالاتك واولادك يلاحظون كل طية من طيات ثوبك وكل جعدة من تجعدات شعرك . فليكن لباسك بسيطاً ولكن ليس عارياً من الجمال والفن . لو كانت الغاية من اللباس الحفظ من الشتاء والبرد لكان كيس من الجفيص او جلد حيوان كافياً لنا . ولكن اللباس هو اعظم من ذلك . فالانسان يعرف باعماله واقواله وثيابه . فثوبه ليس كناية عن غطاء له بل هو رمز الى شخصيته واميالة . يبشر بعض الناس بعدم الاكتراث

بتزيين اجسادنا والاعتناء بالملبوس : ينادون ذلك باسم البساطة فهم وكل من رأي رأيهم على ضلال . كيف لا والبساطة هي الجمال بعينه كيف لا والطبيعة تعلمنا عكس ذلك . اولم تر عيونهم زنابق الحقل وكيف زينها الله وكونها ولونها . مع انها لا تعيش الا يوماً واحداً ..

لا تسيئي فهمي ايتها السيدة فانك مهذبة ولست اشك بانك تعلمين ان اتباع الموضة والاسراف ليسا من غايتي — ماذا تقولين في امرأة لا تكلمك الا باقوال الفلاسفة وكلام الكتاب لا تجدين حركة طبيعية فيها ولا كلمة من روحها . لا شك انك تنفرين منها وتنسبين اليها فساد الذوق وتعدينها كآلة فونوغرافية لا غير . وهذه حال من تتقلد الجمهور متبعة كل زي جديد في كل ما تلبسه ساهرة كل السهر حتى لا يكون شيء في ثوبها مخالفاً لما رسمه مبتدعوا الموض والازياء في باريز

هل من جمال ثوب يضاهي جمال ثوب المرأة المتهذبة التي وفقت بين لونه ولونها قبل شرائه وحسبت ما في مصر زوجها قبل قصه واضافت الى صورته صورة ذوقها الخاص والى تخريجه شغل يديها النحيفتين ..

كاني ارى هذه المرأة وقد قربت الشمس من المغيب واقفة بباب بيتها لتستقبل زوجها واولادها بصورة ملاك يدخل ضيوفه لا بل اهله الى السماء الاولى او البيت السعيد .. « للخطاب بقية »

حكم واراء

يجب علينا ان نقتبس كل شيء جديد ونافع ولا فرق بين ان يكون مصدره مكة ام باريز فؤاد باشا

يظن الشرقي ان الله فعل كل شيء لاجله فيفقده هذا الظن عن العمل لذاته وتغيير شيء من عاداته مونتسكيو